وأمير الشعراء بعد شوقي، ووارث الشعر العربي ومتنبي العصر ورب الشعر، ولد عام (١٨٩٩م) في مدينة النجف الأشرف العراقية، ذلك المركز الديني والأدبي البارز ينحدر من أسرة عريقة في علوم الفقه والأدب والشعر عرفت بأسرة الجواهري نسبة لكتاب جليل اسمه (جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام) للمحقق "الحلي" ألفه الشيخ محمد حسن" أحد أعلام الفقه في عصره والمرجع الديني البارز للطائفة الشيعية في زمانه، الشيخ محمد الحسن النجفي المولد هو وسبعة من آبائه، والمسمى باسم موسوعته الفقهية "جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام (1) . وخطط له والده وآخرون أن يحفظ في كل يوم خطبة من نهج البلاغة وقصيدة من ديوان أبو الطيب المتنبي . نظم الشعر في سن مبكرة وأظهر ميلاً منذ الطفولة إلى الأدب فأخذ يقرأ في كتاب البيان والتبيين ومقدمة ابن خلدون ودواوين الشعر ، وقد توفي الشاعر الجواهري بعد أن بلغ سنه أكثر من ثمانين عاماً. ولد الجواهري في العراق، ودفن في دمشق وعاش متنقلا بين عدة دول منها الأردن ومصر والمغرب وروسيا ويوغسلافيا طلع الجواهري على القرن العشرين من بيت أسواره الدين والمذهب وأعمدته العلم والثقافة والأدب، ومحيطها بحار من كتب الاستدلال والجدل، ومن بلد تتكالب عليه القوى الاستعمارية. فهذه الشخصية ملازمة طبعاً لكل أحداث القرن ولعل الذي أطلق على القرن العشرين بقرن ألجواهري لم يكن مبتعداً عن الحقيقة. غازل النساء وجاب البلاد وبين كل هذه الحدود كان الشعر هو الأساس (٢) . فلقد كان سعى كل سعيه ليصنع من أبنه محمد مهدي رجلا يسير سيره ويجتهد اجتهاده، ليرجع على يده مجد العائلة الجواهرية في الفقة والزعامة الاجتماعية، ومن أجل هذا كان الأب يشتد على الابن في حضور الدروس ويوصي أساتذته بالتعامل معه على هذا الأساس، أما الجواهري فقد كان يضيق صدراً بهذا ويرى نفسه وقد خلق لشيء آخر، وكان له ولع رهيب بالشعر يصل إلى درجة من القصوى، وبقي الشعر هاجسه الأول الذي لا يستطيع تفويت أي فرصة ليظفر به (٣) يتحسس أحاسيس الناس ويتخذ مواقف رهيبة بحضرة الأمراء والقواد غير مبال، ولم يقدر أحد على هذا الأمر قبله ولا بعده. بل لم تيبس جذور الخير في كامنه، أو يتغنى بما كان يتغنى به الشعراء الشعبيين الأوائل كان الجواهري شاعراً خلاقاً تطيعه اللغة وتنساب بين يديه وتطاوعه فاستطاع أن ينحت كلمات جديدة ليست موجودة في التراث اللغوي وحين سئل عن ذلك قال: هل أنا أفضل في القدرة على تثقيف اللغة واستنباطها أم الأعرابي في الصحراء الذي يتكلم على السليقة فقط؟! وهو بذلك يعتقد أن الأمة العربية في هذا القرن أفضل في قدراتها ومعرفتها بعد أن تطورت الآداب والعلوم كافة.

يقال إنه في إحدى مناسبات الاحتفال بميلاد الشاعر العربي أبي العلاء المعري في مدينته معرة النعمان، الجواهري ألقى قصيدة بالمناسبة وكان مطلعها: قف بالمعرة والثم خذها التربا " واستوح من طوق الدنيا بما وهبا" وحين سمع حسين بهذا المطلع نهض واقفاً وقال: الآن سمعت شعراً وظل واقفاً حتى انتهى الجواهري من قصيدته وقد تناول الجواهري في شعره الغزير هموم وتطلعات الشعب العراقي والشعب العربي والإنسانية أجمعها ، الجواهري على سعة تراثه الفكري ، ووفرة أنتاجه يصعب عليه حذف بيت أو بيتين من شعره ويرى أن البيت الذي يخلق هزيلا ويخرج متهافتاً يمكن تقويمه وإصلاحه ، والجواهري كغيره من شعراء العربية قد يبدل ويغير كلمات من القصيدة ويقدم ويؤخر في بعض أبياتها ، ويتغافل الجواهري عن بعض قصائده القديمة والحديثة منها فلا يذكرها في أحاديثه ولا ينشرها في دواوينه المتعددة الطبع مع جرأته وعم اكتراثه ومع أنها من جيد الشعر ومحفوظة من الناس وما ذلك إلا لأنها نظمت في مجال سياسي معين ، أي إن العراقي ليس وصفة حزبية ولا دينية رغم كل المحاولات القاسية والمرعبة التي مرننا بها ؟ إن المتتبع أولا بأول ليتأكد وهو يتجشم المراقي والسفوح الجواهرية بأنه إمام الأدب الرفيع مصاغا في إطار أصفى من الذهب والبلاغة فيه بلاغة البحتري ممتزجة بحكمة المتنبي . كما إن الجذور والإشارات ، فهو عاشق العراق بكل قومياته وأقلياته وأديانه وحتى المشرق من مناقب أحزابه إضافة إلى جدارته المعرفية لو قورن بكبار الشعراء العالميين وكلا حسب اختصاصه المحلي بما يلاحظ عن الشاعر الكبير محمد مهدي الجواهري أن من تناوله بمؤلفاته كان متناولاً إياه ذاكرة وليس دراسة في الأغلب الأعم ولم يكتب عنه كدراسة إلا النزر القليل من المؤلفات بل أن حتى كتب الدراسة لم تخل من الحوادث والحوارات الشخصية مع الكاتب !؛ وربما يعود ذلك إلى أن كل من كتب عن الجواهري كان مقرباً منه شخصياً مثل (د. (و صباح المندلاوي بكتابيه في رحاب الجواهري والجواهري : الليالي والكتب) ، وخيال الجواهري : سمفونية الرحيل) (حسن العلوي : الجواهري رؤية غير سياسية و الجواهري ديوان العصر) . والجواهري كما يذكر لم يكن تلميذاً مجداً ، فترك المدرسة وأتجه كما أتجه كل أفراد عائلته منذ حداثتهم لدراسة النحو والصرف والمنطق ثم المعاني والبيان ، لقد وصلت الزعامة الروحية للشيخ محمد حسن الجواهري في أوائل القرن الثالث عشر وصار المرجع الديني الأعلى للأقطار التي يقطنها الأمامية في كل أطراف المعمورة . ومن هذه الأسرة الشيخ جواد بن الشيخ حميد الزعيم المطاع ، صاحب الكلمة النافذة عند الحكام والروحيين . هم أسرة الجواهري الذي قد ترعرع في كنفهم ، لذا فأن الجواهري كان وسط هذه البيئة الأدبية التي لم تمر بها المدينة سابقاً حيث كان الأدباء في محفل

Summarized by © lakhasly.com

دائم من اللغة والشعر ، ولم تكن تلك النوادي بالمعنى المألوف لنا اليوم ، فليس لها مناهج مقررة وإنما كانت بيوت تالف هؤلاء الشعراء ، لذا فأن شاعرنا كون له في ذلك شخصية أدبية ممتازة لها أسلوبها ولها ألهامها فأخذ يتجدد أكثر فأكثر ولكن ظل تجدده في روحه أكثر من تجدده في أسلوبه فقد قرض الشعر وهو لم يبلغ الحلم بعد، وبدأت قصائده وأشعاره في مرحلة المراهقة ولا تكاد تتعدى أبياته بعدد أصابع اليد حتى عام ١٩٢٠م حيث نظم قصيدته الغراء في الثورة العراقية ونشرتها جريدة العراق و مطلعها (٥) :

كما أستمر الجواهري بنشر قصائده في صحف ومجلات عديدة أخرى، منها مجلة لسان العرب التي كان يصدرها الأب أنستاس الكر ملي، كما أن السفرتين بين عام ١٩٢٤ ١٩٢٠م إلى إيران قد نضجت عنده القابلية الشعرية وأيقظت لديه القريحة الشعرية من خلال تأثره الوخاذ بالطبيعة الإيرانية، فالأب عالم وشاعر، وأما البعد الاجتماعي لبيئته الخاصة فهو ليس بأقل من البعد الثقافي والديني تأثيراً، ولم يكن الجواهري أن لا يتأثر بالبيت الديني الذي يتلى فيه القرآن صباحاً ومساء، وكمال بلاغتها فيه. لقد اكتسب الجواهري خلفية ثقافية من بيئته النجف لازمته سلباً وإيجابا طوال عمره البالغ مائة عام تقريباً، فقد نبغ في الشعر في حداثته متأثراً بما كان يسمعه وهو يرتاد النوادي الأدبية في النجف من أصوات أبي تمام والمتنبي والبحتري والشريف الرضي. لا انفكاك الجواهري عن بيئته، بل لم يقدر على أن ينفك عن النجف أو عن العراق رغم سنين البعد ورغم انقلابه الكبير عن سلبيات الاستقلال الديني لبعض الجماعات، قال الجواهري: أنا لا أزال أتحدث عن الناحية الأدبية والشعرية عندي وليس من السهولة بمكان انفكاك هذه الناحية عن ناحية البيئة والمجتمع وحتى ناحية حياتي الشخصية، حياة كل شاعر يعيش مشاعره بأفراحها و أتراحها فضلا عن أنه وجد ليكون وكأنه مكلف بمشاعر الآخرين وأفراحهم حملت همومي على منكب و هم سواي على منكب ولا شئت نفسي في الأبعدين أفكر فيهم وفي الأقرب هنا لابد من الإشارة إلى أهم دواعي قول الشعر فللشعر دواعي مختلفة تلك الدواعي التي تستثير القريحة، وتجعل الشاعر يعيش جوا من الشاعرية المحفة، فالموهبة أو الإحساس الفطري في الإنسان الجوانب فنية يرى فيها نفسه ينجذب ويؤخذ نحوها تعتبر من أهم دواعي ظهور كفاءة فنية أو أدبية خاصة بالإمكان صقلها وتقويتها كي تتجسد وتظهر بصورها المتحولة والمتغيرة نحو الاكتمال والوصول إلى الخلق، ولا يمكن استثناء الجواهري في هذا، فكيف ذلك وهو المبدع النابغة في حقل الشعر العربي الذي هو عين الأدب ووجهه البارز. فقد نبغ في الشعر وهو حديث السن بعد ونشأت معه الهامة الذي كان يشده نحو رهبة الشعر وتقديسه، ولقد كان هذا الإلهام الشعري أو الموهبة التي كانت تحيط بكل كيانه السبب في مغادرة كل النواحي العلمية والفقهية وحتى السياسية التي أتيحت له أن أراد ذلك، ولا ندري إن كان هناك من يفرق بين الموهبة والإلهام ونظن أن الملهم هو الموهوب والموهوب هو صاحب الكفاءة الفطرية التي تلهمه نحو إيجاد الأثر الفني أو الأدبي، لندع الجواهري باعتباره أحد هؤلاء العظماء أن يلقي الضوء على موهبته الشعرية أو الهامة حيث قال : فلربما كانت كلمة الإلهام أقرب إلي من كلمة الموهبة، ويبدو أن قضية شيطان الشعر في الفكر الجاهلي هي إدراك للمرحلة الجاهلية لمسألة الالهام والموهبة الشعرية. وهل يتفق هذا في القرن العشرين مع الجواهري، ولا ندري ماذا نسمى الذي كان يراود الجواهري ليخلق آثاره الشعرية، لقد استساغ الجواهري أمر هذا الشيطان وصرح بذلك حين قال: (وكان شيطان الشعر ينزع في مطاوي نفسي وعلى لساني عندما يغادر أبي البيت، وحينئذ يخرج شيطان الشعر من القمقم شاخصاً أمامي بكل كيانه الساخر إلى العلن لأرتل ما يلقى بين يدي من نتاج العباقرة والشعراء العظام بمثل ما يتغنى به حداة البدو وشداتهم) (١٠). وهكذا أصبحت الموهبة والقدرة الذاتية للشعر في نمو وازدهار وتصقيل لتهيؤء الشاعر المعجزة وتقدمه في ميدان الأدب العربي وليس بالإمكان تعويض الموهبة بالتصنع والتكلف مهما جهد الإنسان. لما كان الجواهري منذ بداياته قد فتح عينية وهو يرى في أطرافه أينما يلقى نظرة كتب ومكتبات في البيت، كان طبيعياً جداً أن يكون الكتاب صاحبه الوفي الذي لا يغادره في أي حين بل المتنفس الوحيد الذي كان بإمكانه أن يحتوي الجواهري وينميه ويصقل موهبته وفي المقابل لم يدخر الجواهري وسعاً بالالتصاق بالكتاب والسعي الدءوب بالحصول عليه وقضاء حاجته النفسية والروحية به ويذكر الجواهري بأنه في سبيل الحصول على بعض الكتب كان يدخر من النقود التي كانت تعطي له لاقتناء مستلزمات البيت اليومية من خبز وطحين ورز وغير ذلك، ولقد سمى الجواهري هذه بالسرقة من البيت أو من مصرف البيت (١١) ويعتبر هذه الفترة بفترة القراءات القسرية فقد قال: فقد تحتم علي أن أحفظ عصر كل يوم خطبة من نهج البلاغة أو قطعة من أمالي القالي وقصيدة من ديوان المتنبي ومادة الجغرافية، كان ينبغي أن أدرس النحو والصرف على يد الأديب محمد علي مظفر وعلى أن أتم الأجرومية ثم كتاب القطر لأبي هشام) ثم ألفية ابن مالك لأتم كل ذلك بتفهم بشهرين أو ثلاثة مثلاً، وبعد النحو درست علم البلاغة والبيان على يد شيخين مقتدرين هما علي ثامر، وقد أكد الشاعر مراراً وفي أماكن عديدة بأنه اعتمد في ثقافته ولغته بشكل أساسي على أربعه كتب ابتدأ بقراءتها وهو في سن الثامنة وهو بحاجة إلى قراءة هذه الكتب حتى في الثمانين من عمره وهذه

Summarized by © lakhasly.com

الأربعة تعد من ركائز الأدب العربي وهي: الكامل، وكان يستنسخ دواوين فطاحل الشعراء من الجاهلي والعباسي وغيرهم في معرض هذا الموضوع قال الجواهري : (١٤) بدأت بعد ذلك شخصيتي الأدبية ذاتياً، كنت ألتقط الكتب كمثل الجوعان أو العطشان إلى كل كتاب أدبي أو ديوان شعري يقع تحت يدي بدون تمييز حتى أن بعض الكتب كان يجب أن أستعيرها من أصحابها، هذا بالإضافة إلى قراءته للكتب الروسية، حيث جاء في قصيدة الأوباش (١٧) جهلنا ما يراد بنا فقلنا فلما أيقظتنا من سبات وليس هناك شك في حياة لجأنا للشرائع باليات فكانت قوة أخرى وداء رجونا أن يكون به الدواء وهكذا بدأ الجواهري يحيك خيوط مملكته الشعرية معبأ نفسه لخوض غمار معارك آتية كان لابد له من أن يتغلب فيها، لم يحدث أن يتفق النقاد والأدباء على شاعر معين أو على مدرسة شعرية لتكتل أدبي، حيث أن الأغلبية تعتقد بأن له مدرسة شعرية خاصة لا يمكن قياسها بالمدارس المعهودة، فكلها كانت تصب في واحة الاتفاق على أن مدرسته مدرسة متميزة تكاد تكون فريدة في الأسلوب والمضمون والشكل وهذا لا يدحض القول يكون الجواهري آخر حلقة من حلقات الشعر الكلاسيكي بلا منازع، وبذها به خلت الساحة الأدبية من عملاق يشار إليه بالبنان ويتفق على نبوغه الشعري وأمارته للشعر المنحدر من امرئء ألقيس ولبيد وطرفة والبحتري وأبي تمام والمتنبي ودعبل وشوقي وغيرهم. وبموته يمكن القول إن أحداً من الشعراء لن يستطيع أن يقدم جديداً في هذا الشكل و في الحقيقة كان الجواهري قامة هائلة بعد شوقي وربما باستمراره استطاع أن ينقل نبض العصر في قصيدته (١٩). لكنه لا يحبذ شعراء المهجر ولا يدين بأسلوبهم الشعري، ولعل مرد ذلك إلى عدم وحدة الأسلوب والفكرة عندهم والذي كان الجواهري يعتقده به وحتى الذين لم يميزوا بين الفكر والأسلوب والذي كان الجواهري يسلك في طريقهم الشعري، فقد تميز عنهم واختص لنفسه بشعره وأسلوبه الخاص بالجواهري الشاعر، أما الأوائل فالمتنبي في شعره، أن اتفاق القول على عدم وضع الجواهري في قالب معين في دنيا الشعر أدى بالبعض إلى تسميته بالحالة الخاصة، أو الظاهرة الجواهرية في الشعر، فهو بهذا قد تحدى النقد والنقاد من التقرب إلى ساحة شعره، إلا بالأحكام العامة والجاهزة دون تعمق في كنه شعره، فأين نضع الجواهري من هذا وذاك ؟ (٢١) هنا يطرح سؤال و هو: هل الجواهري كلاسيكي مقلد وحسب؟ أم مجدد ينبذ القديم التراثي؟ أم هو بين هذا وذاك؟ أم صاحب نبوءة في الشعر تمتاز عن كل هذا، قد يتحير معها الناقد ويصعب اختيار الحكم الأدبي المطلوب فلا تستغرب إذا حينما يقول الدكتور محمد مبارك والحديث عن الجواهري كظاهرة شعرية، لم يحظ الجواهري الظاهرة الشعرية المتمردة في شعرنا المعاصر، بما هو حقيق به من درس وتقويم ونقد، فظلت لذلك أبعاد التجربة الشعرية ولسماتها وخصائصها الفنية في الخلق الفني بعيدة عن دائرة الوعي العام لإنساننا العربي المعاصر (٢٢) . واذا كان الجواهري آخر رعيل الشعر العربي الكلاسيكي، بأنه أكبر من قال الشعر العربي لحد الآن، وامتياز الجواهري هذا المجال هو اتخاذ القديم، بلباس التجديد والتحديث من دون أية إساءة إلى المنهج الكلاسيكي. تلك الظاهرة التي لا يمكن أن نطلق عليها مصطلح (الكلاسيكية الجديدة المتمثلة في محمد مهدي الجواهري، بينما ذهب بعضهم إلى أن للشاعر نمطاً جواهرياً جرى في طريقة أدبية خاصة، لم يكن لأسلوب الجواهري الشعري أن يأتي من فراغ، أو أن يظهر لوجود عوامل عمومية يمكن انطباقها على أسلوب شعري أي شاعر آخر، فهو في كل الأحوال قد بني بنيانه الأدبي على هذه الخلفية الغنية ومطالعة دواوينه خير شاهد على ذلك، فان الجواهري إن لم يكن حاملاً لتراث يضرب في عمق ألف عام، لقد اكتنز الجواهري في خياله كل ما مر على قومه وبلاده من تعسف وجور من الحاكمين والمتنفذين خلال القرون السبعة المظلمة، ورأى مجتمعه الذي يعج بالمشاكل والعقد، أهم مميزات شعر الجواهري : لا شك أن لشعر الجواهري ميزات خاصة يمتاز بها. فهي كثيرة ولكن اختيرت من بينها أربع ميزة والتي حصرناها في: يعود العنف في شعر الجواهري إلى الطبيعة المزاجية العنيفة التي تمتاز بها شخصيته، والشيء الذي يلفت الانتباه إليه هو أن عنفه ليس بالعنف الذي يوحي بالخشونة والحقد،

Summarized by © lakhasly.com